الفصل الخامس

التراتيب الإدارية والحريات الدينية في مصر الإسلامية

لقد فتح صحابة رسول الله ﷺ مصر، وهم يعلمون مكانتها في السنة النبوية، وهم يحفظون ويرددون وصايا الرسول ﷺ بها وبأهلها، ولقد ظلت هذه الوصايا ثوابت فيما كتب المؤرخون المسلمون عن مصر، كما تحولت إلى فلسفة تحكم التراتيب الإدارية التي وضعت لمصر بعد أن غدت جزءًا من دار الإسلام، بل كنانة الله في دار الإسلام.

فعند أقدم من أرخ للفتح الإسلامي لمصر ـ ابن عبد الحكم (٢٥٧هـ ـ ٨٧٠م) ـ نقرأ رواية الصحابي أنس بن مالك قول رسول الله ﷺ: «إذا فتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيرًا، فإن لهم ذمة ورحمًا» وتعليل ابن شهاب الزهري (٥٨ ـ ١٢٤هـ ـ ٦٧٨ ـ ٧٤٢م): «إن أم إسماعيل بن إبراهيم ـ عليهما السلام ـ منهم» ورواية عبد الله بن مسلمة: أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ قد سمعوه يقول: «إنكم ستكونون أجنادًا، وإن خير أجنادكم أهل الغرب منكم، فاتقوا الله في القبط استوصوا بالقبط خيرًا، فإنكم ستجدونهم نعم الأعوان على قتال عدوكم. الله الله في قبط مصر، فإنكم ستظهرون عليهم ويكونون لكم عدة وأعوانًا في سبيل الله».

ونقرأ أخبار مصاهرة القبط لثلاثة من أنبياء الله: إبراهيم ـ خليل الرحمن ـ عليه السلام ـ الذي تسرّى بهاجر، ويوسف ـ عليه السلام ـ الذي تزوج بنت صاحب عين شمس، ورسول الله ﷺ الذي تسرى بمارية القبطية.

وكما كانت مارية القبطية ـ التي أهداها المقوقس للرسول ﷺ ـ أم ولده ـ الذي اختار له اسم إبراهيم ـ فلقد كانت الثياب التي أهداها له المقوقس محبوبة لديه، حتى أنه طلب أن يُكفن فيها عند الوفاة، فعن ابن مسعود: قلنا: يا رسول الله، فيم نكفنك؟ قال: في ثيابي هذه، أو في ثياب مصر»[١].

ومن المؤرخين المسيحيين، الذين أرخوا للفتح الإسلامي لمصر من شهد بهذه الحقيقة حقيقة حب رسول الله ﷺ لمصر وأهلها ومن هؤلاء المؤرخين د. جاك تاجر، الذي يقول: «**إننا نستطيع الجزم بأن صاحب الدعوة الإسلامية كان يضمر كل خير لسكان مصر الأصليين**»[٢].

(١) (فتوح مصر وأخبارها) ص٢ ـ ٤، ٥٢.

(٢) (أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢م) ص٢٠.

obeikandl.com

● ولقد اعتمدت الدولة الإسلامية ـ منذ اللحظات الأولى لتمام الفتح ـ سياسة إشراك أهل مصر في سياسة بلدهم وفي إدارتها ـ بعد أن كانوا معزولين عن ذلك عزلًا تامًا ـ فكتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص أن يسأل المقوقس عن مصر، من أين تأتي عمارتها وخرابها؟ فسأله عمرو، فقال له المقوقس: تأتي عمارتها وخرابها من وجوه خمسة:

١ـ أن يُستخرج خراجها في إبان واحد، عند فراغ أهلها من زروعهم.

٢ـ ويُرفع خراجها في إبان واحد عند فراغ أهلها من عصر كرومهم.

٣ـ وتُحفر في كل سنة خُلُجها.

٤ـ وتُسد ترعها وجسورها.

٥ـ ولا يُقبل محْل أهلها ـ يريد البَغْي.

فإذا فُعل هذا فيها عمرت، وإن عُمل فيها بخلافه خربت[١].

ولقد عبر عمرو بن العاص ـ في خطابه إلى عمر بن الخطاب ـ عن هذه السياسة، فقال: «إن الذي يصلح هذه البلاد وينميها ويقرّ قاطنيها فيها:

١ـ ألا يُقبل قول خسيسها في رئيسها.

٢ـ وألا يُستأدى خراج ثمرة إلا في أوانها.

٣ـ وأن يُصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها.

فإذا تقرر الحال مع العمال في هذه الأحوال تضاعف ارتفاع المال. والله تعالى يوفق في المبدأ والمآل»[٢].

ولقد أعلن عمرو بن العاص هذه السياسة على الجنود، عندما خطبهم فقال: «**استوصوا بمن جاورتموهم من القبط خيرًا ـ لقد حدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن الله سيفتح عليكم بعدي مصر، فاستوصوا بقبطها خيرًا، فإن لكم منهم صهرًا وذمة». فكفوا أيديكم، وعفوا فروجكم، وغضوا أبصاركم، واعلموا أنكم في رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم، وتشوق قلوبهم إليكم، وإلى داركم، معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية**. ولقد حدثني عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها**

(١) (فتوح مصر وأخبارها) ص١٦١.
(٢) (فتح العرب لمصر) ص٤٤٩.

obeikandl.com

جندًا كثيفًا فذلك الجند خير أجناد الأرض» فقال أبو بكر: ولم يا رسول الله؟ قال: «لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة» أقول قولي هذا وأستحفظ الله عليكم»[١].

ولقد كانت وثيقة الصلح بين عمرو بن العاص وبين المقوقس ـ ومعه قبط مصر، وثيقة دستورية ـ نصت على حقوق أهل مصر في:

١ـ ربط الضرائب بوفاء النيل.

٢ـ وتقسيط هذه الضرائب على ثلاثة أقساط.

٣ـ والمساواة في خراج الأرض بين المسلمين وغير المسلمين.

ولقد أورد الطبري نص هذه الوثيقة التي جاء فيها: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من **الأمان على أنفسهم، وملتهم، وأموالهم، وكنائسهم وصُلبهم، وبرهم وبحرهم**. لا يدخل عليهم شيء من ذلك ولا ينتقص، ولا يساكنهم النوب.

وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح، **وانتهت زيادة نهرهم** وعليهم ما جنى لصوتهم ـ (لصوصهم) ـ **فإن أبى أحد منهم أن يجيب رُفع عنهم من الجزاء ـ (الجزية) ـ بقدرهم، وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رُفع بقدر ذلك**، ومن دخل في صلحهم من الروم والنوب فله مثل ما لهم، وعليه مثل ما عليهم، ومن أبى واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه، ويخرج من سلطاننا. **عليهم ما عليهم أثلاثًا في كل ثلث جباية ثلث ما عليهم.** على ما في هذا الكتاب عهد الله وذمته وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين وذمم المؤمنين. شهد الزبير وعبد الله ومحمد ابناه. وكتب وردان وحضر»[٢].

ولقد عبر عمرو بن العاص عن مكانة مصر المتميزة في المحيط الإسلامي ـ بعد تحريرها ـ فقال: «**إن ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة**»[٣].

● وفي شهادة قبطية حديثة، نقرأ كيف حقق الفتح الإسلامي لمصر وأهلها نوعًا من الحكم الذاتي كانوا قد حرموا منه لعد قرون، نقرأ للمؤرخ القبطي يعقوب نخلة روفيلة قوله: «**ولما ثبت**

(١) المرجع السابق. ص٤٤٩.

(٢)(تاريخ الطبري) جـ٤ ص١٠٩. و(وردان) هذا هو مولى عمرو بن العاص، وحامل لوائه في القتال.

(٣) (النجوم الزاهرة) جـ١ ص٣١.

obeikandl.com

قدم العرب في مصر، شرع عمرو بن العاص في تطمين خواطر الأهلين، واستمالة قلوبهم إليه، واكتساب ثقتهم به، وتقريب سراة القوم وعقلائهم منه، وإجابة طلباتهم. وأول شيء فعله من هذا القبيل: استدعاء بنيامين البطريرك، الذي سبق واختفى من أمام هرقل ملك الروم، وذلك أنه كان بين رؤساء الأقباط المتقربين من عمرو واحد يسمى «شنوتي» (شنودة)، فتقدم إليه وأعلمه بخبر البطريرك، وما كان من أمر هروبه واختفائه، وطلب منه أن يأمر بعودته، فلبى طلبه، وكتب أمانًا وأرسله إلى جميع الجهات يدعو فيه البطريرك للحضور ولا خوف عليه ولا تثريب. ولما حضر وذهب لمقابلته ليشكره على هذا الصنيع أكرمه وأظهر له الولاء وأقسم له بالأمان على نفسه وعلى رعيته. وعزل البطريرك الذي كان أقامه هرقل. ورد بنيامين إلى مركزه الأصلي معززًا مكرمًا. وهكذا عادت له المياه إلى مجاريها، بعد اختفائه مدة طويلة قاسى فيها ما قساه من الشدائد. وكان بنيامين هذا موصوفًا بالعقل والمعرفة والحكمة حتى سماه بعضهم (بالحكيم) ـ وقيل إن عمرًا لما تحقق ذلك منه قربه إليه، وصار يدعوه في بعض الأوقات ويستشيره في الأحوال المهمة المتعلقة بالبلاد وخيرها، وقد حسب الأقباط هذا الالتفات منّة عظيمة وفضلًا جزيلًا لعمرو.

وأمر عمرو بأن من لا يرغب من الروم البقاء في مصر فليخرج منها بأمان، ومن يفضل البقاء تضرب عليه الجزية ـ ويكون له ما للأقباط وعليه ما عليهم. وكان عدد الروم في مصر ينوف عن ثلاثمائة ألف نفس فهاجر أغلبهم ولم يبق منهم إلا من كانت له علاقات ومصالح لا تسمح له بالخروج منها والابتعاد عنها.

وانتهز القبط خروج الروم فرصة مناسبة فوضعوا يدهم على كثير من كنائسهم وأديرتهم وملحقاتها بدعوى أنها كانت في الأصل ملكًا لهم والروم نزعوها من أيديهم قوة واقتدارًا بسبب ما كان بينهم من الشقاق، **ومن ذلك الحين عاش الروم بالحسنى وانتهت من بينهم المنازعات والمخاصمات التي كانت تفضي إلى قتل الألوف المؤلفة لزوال أسبابها.**

obeikandl.com

ثم أخذ عمرو في تنظيم البلاد، وإذ كان يعلم أن صاحب الدار أدرى بما فيها، **استعان بفضلاء القبط وعقلائهم على تنظيم حكومة عادلة تضمن راحة الأهالي والوالي معًا، فقسم البلاد إلى أقسام يرأس كلًّا منها حاكم قبطي له اختصاصٌ وحدود معينة، ينظر في قضايا الناس ويحكم بينهم، ورتب مجالس ابتدائية واستئنافية مؤلفة من أعضاء ذوي نزاهة واستقامة، وعين نوابًا مخصوصين من القبط ومنحهم حق التداخل في القضايا المختصة بالأقباط والحكم فيها بمقتضى شرائعهم الدينية والأهلية، فكانوا بذلك في نوع من الحرية، والاستقلال المدني، وهي ميزة كانوا قد جردوا منها في أيام الدولة الرومانية.**

وضرب الخراج على البلاد بطريقة عادلة، وولى عليه متوليًا من ذويه يقبضه على أقساط في آجال معينة حتى لا يتضايق أهل البلاد، ورتب الدواوين، فاختص الأقباط بمسك الدفاتر وسائر الأعمال الكتابية والحسابية، وكانت كلها تجري باللغة القبطية. **وبالجملة فإن القبط نالوا في أيام عمرو بن العاص راحة لم يروها من أزمان.**

ومما حبب القبط في عمرو، وجعلهم يميلون إليه كل الميل، أنه كان مراعيًا في كل تصرفاته مصلحتهم وراحتهم، فلم يجب منهم في مدة إمارته من الأموال أكثر مما صولحوا عليه بغير زيادة أو نقص، ولا في غير آجالها المضروبة لجمعها وتحصيلها»[1].

كما يشهد المؤرخ الإنجليزي «بتلر» على أن الإدارة للبلاد ـ بعد الفتح ـ إنما كانت إدارة وطنية فيقول: «لقد بقي بعض أكابر حكام الروم في أعمالهم، والأعمال التي نزح عنها الروم جعل العرب عليها بدلًا من القبط، **حتى صار عمال الدولة يكادون يكونون جميعًا من المسيحيين.**

وكان على زعماء الناس في القرى أن يجتمعوا لينظروا في حال الزراعة، ويجعلوا جباية المال مناسبة لذلك، فكانوا في ذلك بمثابة لجنة خاصة تجتمع لتقدير مقدار ما يُجبى من الأموال، فإذا اجتمع من ذلك المال شيء فوق ما فرض على قريتهم أُنفق في إصلاح أحوالها. وكانت تجعل في كل بلد قطعة من الأرض يخصص ريعها لإصلاح الأبنية العامة وصيانتها، وذلك مثل الكنائس والحمامات»[2].

(١) (تاريخ الأمة القبطية) ص٥٤ ـ ٥٧، ٦٣.

(٢) (فتح العرب لمصر) ص٤٦٥ـ ٤٦٧.

obeikandl.com

ويؤكد المؤرخون الفرنسيون على قيام هذا العدل الإسلامي في أرض الواقع بمصر. فإسلامية مصر، بعد الفتح، إنما كانت لكل أهلها، المسلمين منهم وغير المسلمين «**فبمجرد توطيد سلطة الدولة الإسلامية، يندرج السكان بين عشية وضحاها في دار الإسلام** ولا يرجع ذلك على أية حال إلى أنهم ينتمون إلى الإسلام. على الضد من ذلك تمامًا، فالقانون ينص على أن غير المسلمين سوف يتمتعون بوضعية خاصة، ومن ثم فهو يقنن وجودهم الديني، والانتقال إلى الإسلام يأخذ أجيالاً، ونحن نعرف أن الإكراه عليه كان غائبًا في أغلب الأحيان، وهو لن يحدث في تاريخ الإسلام العربي، إلا بصفة استثنائية، ولقد صرح الحاكم بأمر الله للمسيحيين الذين أكرههم في الليلة الماضية على الارتداد عن المسيحية باستعادة ديانتهم.

والواقع أن العرب لم يجيئوا طغاة، ولقد نصت وثيقة الصلح مع المقوقس على التزام سكان مصر بالجزية فور وصول فيضان نهرهم إلى منتهاه، وإذا لم يصل النهر لحظة الفيضان إلى مستواه العادي، فسوف يجري تخفيف عبء الجزية عنهم بما يتناسب مع ذلك. ولقد كان حجم ضريبة الرأس ضئيلاً نسبيًّا. والإدارة المكلفة بجباية هذه الضريبة تجبى أيضًا ضريبة الخراج، وهي ضريبة أرض يخضع لها الجميع مسلمين كانوا أم ذميين، وكان موظف إدارة الضرائب جابيًا محليًّا، فالعرب لم يجيئوا ومعهم إدارتهم، ولم يكن يهمهم غير المبلغ الإجمالي للإيرادات، ومن ثم فإنهم سوف يتركون تقسيمه بين الجزية والخراج لتقدير الجابي المحلي»[1].

وكانت الجزية ـ ضريبة الرأس ـ بدلًا من الجندية ـ وليست بدلًا من الإيمان بالإسلام ـ أي للإنفاق على الجند الذين يحمون الأرض والسكان من الأعداء الذين يتربصون بهم الدوائر. وعندما قال المفاوضون عن المقوقس ـ في بدايات الفتح ـ: «إننا إذا أذعنا للمسلمين، ودفعنا الجزية، لم نَعْدُ أن نكون عبيدًا» قال لهم عبادة بن الصامت: «إنكم إن دفعتم الجزية كنتم آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم، مسلطين في بلادكم على ما في أيديكم وما تتوارثونه فيما بينكم، وحفظت لكم كنائسكم لا يتعرض لكم أحد في أمور دينكم.

وكانت الجزية ثلاثة أقسام: للفقراء، ولأوساط الناس، وللأغنياء ـ لكل فئة قسط يناسبها.

(١) (المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي) ص٣٨، ٤٣، ٣٣، ٤٠.

obeikandl.com

ولم يُبح للمسلمين في أول الأمر أن يملكوا الأرض وكان الرأي أن يبقى العرب على رباطهم، لا يشتغلون بالزرع، ولا يحلون بالبلاد كأهلها، فلما أن اطمأنوا في البلاد، أخذ ذلك المنع يرتفع عنهم، وأبيح لهم أن يملكوا الأرض، وكانوا إذا ملكوا أرضًا دفعوا عنها الخراج كسائر الناس ـ أقباط ومسلمين ـ وكان الروم يجبون من مصر أموالًا كثيرة الأنواع، ثقيلة الوطأة، شديدة الأذى، فأحل العرب محلها الجزية وخراج الأرض وكانت لها فضيلة البساطة، وكانت ثابتة المقدار، محدودة القصد..»[١].

وفي طرق جباية الضرائب تغير الوضع عما كان عليه زمن الرومان. ويشهد مؤرخ مسيحي على هذا التغير الجذري، فيقول: «لقد نعم المصريون من هذه الناحية بمزية لم يكونوا يتوقعونها، فبينما كان الحكام البيزنطيون يلجئون عادة إلى الضرب لحمل الشعب على دفع الضرائب، أعلن الإسلام بأنه إذا كان شخص في حالة لا تسمح له بدفع الجزية، فلا يجوز للحاكم أن يكرهه على ذلك بالعقاب البدني، أي باستعمال العصي، أو بتعريضه لأشعة الشمس الملتهبة، أو رش جسمه بالزيت المغلي ـ (كما كان يفعل الرومان) ـ وإنما الوسيلة الوحيدة المصرح بها هي السجن لعدم دفع الديون.

وقال أبو يوسف (١١٣ ـ ١٨٢هـ ٧٧١ ـ ٧٩٨م) صراحة في هذا الصدد: «ولا يضرب أحد من أهل الذمة في استيدائهم الجزية، ولا يقاموا في الشمس ولا غيرها، ولا يجعل عليهم في أبدانهم شيء من المكاره، ولكن يرفق بهم، ويحبسون حتى يؤدوا ما عليهم»[٢].

وفي مصر، كان يجري توزيع حصص الضريبة على السكان بموجب تحكيم تقرره لجنة ثلاثية مكونة من جابي الضرائب القبطي (الصراف) وعمدة القرية (شيخ البلد) والمحامي المدافع عن مصالح القرويين (الشاهد). لقد كانت قاعدة إدارة الشئون المالية قبطية بوجه عام، بل يحدث أن قمة الإدارة تصبح قبطية أيضًا، وفي عهد محمد علي باشا (١١٨٤ ـ ١٢٦٥هـ ١٧٧٠ ـ ١٨٤٩م) كان جرجس الجوهري ـ وهو من البورجوازية القبطية ـ وزيرًا للمالية»[٣].

(١) (فتح العرب لمصر) ص٢٨٧، ٤٦٩، ٤٧٦، ٣٥٩.
(٢) (أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢م) ص ٨٢.
(٣) (المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي) ص١٤٨.

obeikandl.com

ولأن الجزية كانت بدلًا من الجندية ـ وليست بدلًا من الإسلام ـ فلقد أسقطت عمن دخل من المسيحيين في خدمة الجيش. ولقد حدث ذلك ـ بمصر ـ في دولة محمد علي باشا في ثلاثينيات القرن التاسع عشر وذلك عندما ألحق نحوًا من مائة قبطي بالعمل في ترسانة الإسكندرية، وأسقط عنهم الجزية، وتقاضوا رواتبهم كغيرهم من المسلمين الملتحقين بالجهادية وجاء في الأمر الصادر في ٢٢ ربيع الآخر سنة ١٢٥٢هـ مايو ١٨٣٦م: «يُقتضى اتباع الأصول المدونة بها، وربط ماهية ومرتب الصنف الذي يستحقه الأقباط الذين يؤخذون للجهادية، لكونهم يؤدون مصالح الميري، ومن اللزوم رعايتهم ورفاهيتهم»[١].

ثم جاء تعميم إلغاء الجزية في عهد الخديوي سعيد باشا (١٢٣٧ ـ ١٢٧٩هـ ١٨٢٢ ـ ١٨٦٣م) بالأمر الصادر بتاريخ ٢١ صفر سنة ١٢٧٢هـ ـ نوفمبر ١٨٥٥م ـ عندما تم تجنيدهم كالمسلمين في الجيش[٢].

وإذا كان المستشرق الألماني الحجة «آدم متز» (١٨٦٩ ـ ١٩١٧م) قد قال: «لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام»[٣] فإن المؤرخ القبطي يعقوب نخلة روفيلة يؤكد على هذه الحقيقة التاريخية فيقول: «لقد كان القبط في الواقع هم المسلطون في بلادهم، وبيدهم كل شيء، وعاشوا آمنين على أنفسهم ومالهم، ولم يكن للعرب سلطة عليهم إلا في تحصيل الخراج وجمع الجزية التي قاموا بدفعها عن طيب خاطر، ولقد استمروا على هذه الراحة حتى سنة ٦٥هـ ٦٨٣م عندما زاد الوالي عبد العزيز بن مروان الضرائب والعوائد ليس على الأقباط فقط بل على جميع المصريين سواء كانوا أهل البلاد أو من المستوطنين فيها، ولكنه خص الأقباط بزيادة الجزية التي فرضها أيضًا على الأكليروس، مع أنهم كانوا إلى هذا التاريخ معافين منها، فألزم كل واحد منهم بدفع دينار في السنة والبطريرك بثلاثة آلاف دينار[٤].

وعندما تفشى الطاعون سنة ٧٠هـ انتقل الوالي من الفسطاط إلى حلوان، **ونقل إليها بيت المال، وكان الأمين عليه رجل قبطي يسمى**

(١) (أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢م) ص ٢٥٤، ٢٥٥. (محفوظات عابدين ـ خطاب من محمد علي إلى حبيب أفندي سجل ٧٤ «معية تركي» رقم ٩١٠).

(٢) المرجع السابق. نقلًا عن محفوظات عابدين. أمر عالي بتاريخ ٢١ صفر ١٢٧٢هـ سجل ١٨٨٣ـ رقم ٨.

(٣) (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) جـ ١ ص١٠٥. ترجمة: د. محمد عبد الهادي أبو ريدة. طبعة بيروت ١٩٦٧م.

(٤) كان وراء هذا التغيير زيادة ثروات الكنائس والأديرة، واتخاذ الأوقاف عليها سبيلًا للتهرب من ضريبة الخراج.

obeikandl.com

«أنيتاس»، وإذ كان القبط في ذلك الحين هم أهل البلاد وذوي الثروة والاقتدار على الأعمال، وعليهم مدار العمران، بخلاف العرب الذين كان معظمهم من الجند المحافظين على الأمن وسلامة البلد، كلف عبد العزيز بن مروان أهل اليسار من القبط أن يبني كل منهم له دارًا بحوان، التي كان يريد أن يجعلها مدينة تحاكي الفسطاط لتكون مقر الحكومة وعاصمة الديار المصرية، وكلف أيضًا البطريرك الموجود حينذاك ـ وكان اسمه «إيساك» ـ أن يبنى له فيها دارًا وكنيسة حتى يرغب باقي الأقباط في التوطن بها، **وإذ كان هذا يحتاج إلى نفقات جسيمة لا يبعد أن يكون قد زاد على الأقباط شيئًا يدفعونه مع الجزية ليساعده على تنفيذ مشروعه،** وبذلك تحصل على مبالغ كافية، والقليل ـ كما يقال ـ في الكثير كثير.

وجاء في سيرة البطريرك «إيساك»، الموجودة نسخته بمتحف لوندرة، ما نصه: «أنه ـ أي البطريرك ـ كان يكثر التردد على حلوان لزيارة الأمير عبد العزيز، الذي أمر أراخنة الصعيد وكل القرى أن يبني كل واحد لنفسه مسكنًا بحلوان المدينة».

وجاء في موضع آخر ـ من سيرة البطريرك ـ ما نصه: «وبعد ثلاث سنوات أطلق الأساقفة إلى كراسيهم ليستعدوا لبناء بيوتهم في حلوان، وكان الأساقفة ينفقون من عندهم على عمارتها، ووكل الوالي بعمارتها «أغريغوريوس» أسقف القيس».

ومما ذكر يعلم أنه كان بين البطريرك والوالي عبد العزيز ودٌّ وائتلاف، ولم يكن جافيًا على النصارى[1].

هكذا شهدت وثائق التاريخ ـ وشهد المؤرخون ـ العرب والأجانب ـ المسلمون والمسيحيون ـ على الانقلاب الجذري والشامل الذي شهده الواقع المصري بعد الفتح الإسلامي. وهي شهادات لعدل الإسلام، الذي وضعه المسلمون في الممارسة والتطبيق.

***

أما عن الحريات الدينية التي أشاعها الإسلام في ربوع البلاد التي افتتحها المسلمون، والتي نعم بها السكان الذين حرموا منها

(١) (تاريخ الأمة القبطية) ص٦٤ ـ ٦٨.

obeikandl.com

لقرون طوال؛ فإن شهادات التاريخ والمؤرخين ـ وأغلبها شهادات شهود من أهلها ـ تؤكد أنها المنارات المضيئة لتاريخ الإسلام والمسلمين في هذا الميدان.

لقد دخلت المسيحية مصر أواسط القرن الميلادي الأول وظلت عقيدة مضطهدة ومطاردة حتى جاء الفتح الإسلامي في القرن السابع للميلاد. ولقد ظل البطريرك الوطني «بنيامين» هاربًا من اضطهاد الرومان ثلاثة عشر عامًا، ولما فشلوا في العثور عليه، قبضوا على أخيه «ميناس»، وسلطوا نيران المشاعل على جسمه، فأخذ يحترق حتى سال دهن جنبيه إلى الأرض، ولكنه لم يتزعزع عن إيمانه، فخلعت أسنانه، ثم وضع في كيس به رمل وحمل إلى البحر حتى صار على قيد سبع غلوات من الشاطئ، ثم عرضوا عليه الحياة إذا هو آمن بما قرره مجمع «خلقيدنية». فعلوا ذلك ثلاثًا، وهو يرفض في كل مرة، فرموا به في البحر فمات غرقًا»[١].

فلما جاء الفتح الإسلامي؛ حرر المسلمون كل العقائد وحرروا البطرك «بنيامين»، وردوا إلى القبط كنائسهم وأديرتهم التي كانت مغتصبة من قبل الرومان الملكانيين، وطاف البطرك بنيامين بكنائس رعيته وخطب فيها ـ معبرًا عن السعادة بالحرية التي حرم منها قومه، فقال ـ وهو يبارك الكنيسة الجديدة ـ كنيسة القديس مقاريوس ـ في الصحراء ـ :«المجد للسيد المسيح، الذي جعلني مستحقًا لدفعة أخرى، أن أنظر هذه البرية الجليلة، وهؤلاء الآباء والإخوة القديسيين، وإظهار الأمانة الأرثوذكسية، **وخلصني من اضطهاد المخالفين، ونجّا نفسي من التنين العظيم الضغي الطارد لأجل الأمانة المستقيمة، ووهبني أن أشاهد أولادي دفعة أخرى وهم محيطين بي**».

وفي كلمته التي ألقاها بدير مقاريوس، قال: «لقد وجدت في الإسكندرية زمن النجاة والطمأنينة اللتين كنت أنشدهما بعد الاضطهادات والمظالم لتي قام بتمثيلها الظلمة المارقون»[٢].

ولم تكن هذه الحرية الدينية، التي حققها الفتح الإسلامي، وقفًا على الأقباط الأرثوذكس وحدهم، وإنما كانت للجميع، بمن

(١) (فتح العرب لمصر) ص٢١٧، ٢١٨ ـ (والغلوة: هي رمية السهم، الأبعد في قدرة الرامي).

(٢) (تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي) ص٢٢٠، ٢٢١.

obeikandl.com

فيهم الرومان الملكانيون ـ الذين آثروا البقاء في مصر الإسلامية ـ وكما يقول المؤرخ الإنجليزي «بتلر»: «فبعد فتح الإسكندرية، أقيم خَلَفٌ لبطريرك الرومان بالإسكندرية؛ ليقوم على ولاية المذهب الملكاني، **وأدى ذلك إلى تنفس الناس في عباداتهم واختيار ما يشاءونه في تدينهم، فلم يكن بالمسلمين اهتمام لمنازعات الأحزاب في شأن مجمع خلقيدونية. وأصبح القبط في مأمن من الخوف الذي كان يلجئهم إلى إنكار عقيدتهم أو إخفائها تقية ومداراة. فعادت الحياة إلى مذهب القبط في هذا الجو الجديد، جو الحرية الدينية، وما لبث أن صار مذهب الكثرة الذي يحق له أن يكون مذهب الأمة السائد**».

«وقد يقال: إن الحكام الجدد قد أدخلوا إلى الأرض دينًا غريبًا غير دين المسيح، وهذا حق، غير أن الأقباط لم يروا في ذلك إلا عدلًا من الله، إذ أجمع الناس على قول واحد فقالوا: «**ما خرج الروم من الأرض، وانتصر عليهم المسلمون إلا لما ارتكبه هرقل من الكبائر، وما أنزله بالقبط وملتهم على يد «قيرس»ـ (بطرك الروم الملكانيين) ـ فلقد كان هذا سبب ضياع أمر الروم وفتح المسلمين لبلاد مصر**».

«ولقد وجد على جدران الكنيسة المعلقة ـ في بابليون ـ قصر الشمع ـ عهد كتبه عمرو بن العاص بيده لحماية الكنيسة، وفيه يلعن من يسعى من المسلمين إلى حرمان القبط منها».

«وكان عمرو يسير في حكمه على نهج الاعتدال والتسامح، ولم يكن له هوى مع أحد المذهبين الدينيين، ويذكر ساويرس أن أسقفًا ملكانيًّا بقي على مذهبه حتى مات لم يمسسه أحد بأذى، وأن بنيامين كان يستميل الناس إلى مذهبه بالبرهان والإقناع.

وعلى هذا لابد أن نقول: إن المذهبين كليهما قد بقيا جنبًا إلى جنب في مصر يظلهما الفاتحون بذمتهم ويحمونها جميعًا بحمايتهم»[1].

ومن تجليات هذه الحرية الدينية، والفرح بها، خروج الرهبان ـ الذين كانوا في العصر الروماني قد فروا بعقيدتهم إلى الصحارى ـ خروجهم للقاء عمرو بن العاص، فلقد ذكر مؤرخو النصارى،

(١) (فتح العرب لمصر) ص٤٥٤، ٤٥٥، ٤٦٠، ٤٦٢، ٤٦٣ (وساويرس، هو ساويرس الأنطاكي (ت٥٣٨م) مؤرخ ولاهوتي.

obeikandl.com

والمقريزي ـ أنه خرج إلى لقاء عمرو بن العاص من هذه الأديرة سبعون ألف راهب، بيد كل واحد عكاز، فسلموا عليه، وأنه كتب لهم كتابًا هو عندهم»[١].

ولقد ظلت هذه الحرية الدينية تظلل سماء الشرق الإسلامي طوال تاريخ الإسلام، وشهد بها وعليها ـ بعد خمسة قرون من الفتوحات ـ بطريرك اليعقوبيين في أنطاكية (ميخائيل الكبير) (١١٢٦ ـ ١١٩٩م) الذي قال: «**إن رب الانتقام استقدم من المناطق الجنوبية أبناء إسماعيل لينقذنا بواسطتهم من أيدي اليونانيين، ولقد أصابنا خير ليس بالقليل بتحررنا من قسوة الرومان وشرورهم ومن غضبهم وحفيظتهم علينا، ولقد سادت الطمأنينة بيننا وبُعثت الكنيسة اليعقوبية من جديد وقويت تحت حكم عمرو بن العاص**»[٢].

وعن هذه الحرية الدينية ـ الفريدة في تاريخ الديانات والفتوحات ـ كتب الأب «برنار» اليسوعي إلى الأب «فليريو» ـ في القرن الثامن عشر سنة ١٧١١م يقول: «**إن مصر هي البلد الوحيدة في الإمبراطورية الإسلامية التي تقام فيها شعائر الدين المسيحي بحرية أكثر من أي بلد آخر، ولهذا السبب فإن عددًا كبيرًا من نصارى البلاد الأخرى يلجئون إليها**»[٣].

(١) (تاريخ مصر في العصر البيزنطي) ص١٩٤.
(٢) (أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي حتى عام ١٩٢٢م). ص١٨.
(٣) المرجع السابق. ص٢٠٢.

***

أما عن انتشار الإسلام، وتحوله إلى الدين السائد في الشرق، وتراجع المسيحية، بعد أن كانت لها السيادة في الشرق عند ظهور الإسلام، وقبل الفتوحات الإسلامية ـ وهو الأمر الذي يرجف حوله المرجفون بالحديث عن الإكراه الديني للتحول إلى الإسلام ـ فإننا نستطيع أن نسوق عشرات الشهادات ـ شهادات الشهود من أهلها ـ على أن الإسلام إنما انتشر ـ حيثما انتشر ـ بالسلم والإقناع والجاذبية الذاتية وتلبية الفطرة؛ لأنه دين الفطرة ـ حتى أنه لم تكن هناك، على مر تاريخه، مؤسسة متخصصة في الدعوة إليه، والحض على اعتناقه.

يشهد على هذه الحقيقة عشرات الشهود، من غير المسلمين ـ بل ومن أعداء الإسلام! ـ الذين شهدوا على أن انتشار الإسلام إنما

obeikandl.com

كان راجعًا لبساطته وقوته الذاتية وإلى ضعف اللاهوت المسيحي، وفساد مؤسساته الدينية ومن هذه الشهادات ـ على سبيل المثال:

١ـ شهادة المستشرق الإنجليزي الحجة «سيرتوماس أرنولد» (١٨٦٤ ـ ١٩٢٠) التي يقول فيها:

«عند ظهور الإسلام، كانت المسيحية ـ ديانة الشعب ـ قد تدهورت، فأصبحت تراعي المظاهر الخارجة مراعاة تقوم على كثير من الوهم والريبة. ووجدت حماسة عبادتهم البالغة متنفسًا في عبادة العذراء والقديسيين والصور والمخلفات الأثرية، وانصرف عدد كبير عن كنيسة انحطت حياتها الروحية إلى الحضيض.

ولما ملّوا مناقشات لا نهاية لها حول مسائل مذهبية عويصة، كالانبثاق المزدوج لروح القدس، وأخرى تافهة ـ كاستخدام الخبز الخمير والفطير في القربان المقدس ـ تقبلوا بصدر رحب تعاليم الإسلام الواضحة المفهومة التي تقوم على الوحدانية.

وقد انتهت إلينا أخبار عن طوائف كبيرة من الناس أسلموا، ولم يكونوا بسطاء عامتهم فحسب، بل كانوا من العلماء على اختلاف طبقاتهم ومناصبهم وحالاتهم.

وفي الكنيسة الإغريقية أصبح الدين الإسلامي الملجأ الطبيعي لأفراد الكنيسة الشرقية، هؤلاء الذين أحسوا بمثل هذا الحنين بعد أن عرفوا صورة من العقيدة أنقى وأبسط[١].

وفي عهد خلفاء صلاح الدين الأيوبي (٥٣٢ ـ ٥٨٩هـ ـ ١١٣٧ ـ ١١٩٣م) نعم المسيحيون بالتسامح والرعاية قرابة قرن من الزمان، ولم يكن هناك ما يشكون منه إلا ما اتصف به كهنتهم أنفسهم من الفساد والانحطاط، فقد فشت السيمونية بينهم[٢]، فبيعت مناصب القسيسين، الذين اتصفوا بالجهل والرذيلة، وبلغت الحياة المسيحية درجة محزنة من الانحلال[٣].

إن سرعة انتشار الإسلام في الأيام الأولى للاحتلال العربي قد تكون راجعة إلى عجز ديانة كالديانة المسيحية وعدم صلاحيتها للبقاء، أكثر من أن تكون راجعة إلى الجهود الظاهرة التي قام به الفاتحون لجذب الأهلين إلى الإسلام.

(١) آرنولد (الدعوة إلى الإسلام) ص١٨٥ ـ ١٨٧. ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن، د. عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوي. طبعة القاهرة ١٩٧٠.

(٢) نسبة إلى سيمون الساحر ـ والمراد الارتقاء عن طريق بيع الرتب الروحية والكهنوتية وبيع الأشياء الروحية بالأثمان الدنيوية.

(٣) المصدر السابق. ص١٢٨.

obeikandl.com

لقد كانت صيغة عقائد المسيحية أشد ما تكون غموضًا وإبهامًا من الناحية الميتافيزيقية. وكان المسيحيون لا يعرفون عن حقائق دينهم إلا معارف غامضة أخذوها بالتواتر، بينما كانت عقيدة الإسلام تتلخص في وحدانية الله البسيطة الواضحة.

وإن كثرة عدد الأقباط الذين كانوا يعتنقون الإسلام من حين إلى حين جعل أتباع النبي محمد يعتبرونهم أشد ميلًا لتقبل الدين الإسلامي من أية طائفة أخرى[١].

لقد جلب الإسلام إلى هؤلاء القبط حياة تقوم على الحرية الدينية التي لم ينعموا بها من قبل ذلك بقرن من الزمان. ويظهر أن حالة القبط في الأيام الأولى من حكم المسلمين كانت معتدلة نوعًا ما، وليس هناك شاهد من الشواهد على أن ارتدادهم عن دينهم القديم ودخولهم في الإسلام على نطاق واسع كان راجعًا إلى اضطهاد أو ضغط يقوم على عدم التسامح من جانب حكامهم الحديثين. بل لقد تحول كثير من هؤلاء القبط إلى الإسلام قبل أن يتم الفتح ، حين كانت الإسكندرية حاضرة مصر وقتئذ، لا تزال تقاوم الفاتحين، وسار كثير من القبط على نهج إخوانهم بعد ذلك بسنين قليلة[٢].

إن مجرد بقاء الكنيسة المسيحية القومية في إفريقيا الشمالية مثل هذا الوقت الطويل ليدحض أي زعم بأن تحولهم إلى الإسلام قد قام على القوة والإكراه[٣].

٢ـ وشهادة المستشرق الفرنسي ـ مترجم القرآن إلى الفرنسية ـ «مونتيه ـ إدوارد) (١٨٥٦ ـ ١٩٢٧) التي يقول فيها:

«إن الإسلام في جوهره دين عقلي بأوسع معاني هذه الكلمة من الوجهتين الاشتقاقية والتاريخية، فإن تعريف الأسلوب العقلي (Rationalism) بأنه طريقة تقيم العقائد الدينية على أسس من المبادئ المستمدة من العقل والمنطق، تنطبق على الإسلام تمام الانطباق، إنه مجموعة من العقائد قامت على أساس المنطق والعقل، وإن بساطة هذه التعاليم ووضوحها لهي على وجه التحقيق من أظهر القوى الفعالة في الدين وفي نشاط الدعوة إلى الإسلام.

(١) المصدر السابق. ص١٢٦، ١٢٧.
(٢) المصدر السابق. ص ١٢٣، ١٢٤.
(٣) المصدر السابق. ص٤٦٧.

obeikandi.com

لقد حفظ القرآن منزلته من غير أن يطرأ عليه تغيير أو تبديل، باعتباره النقطة الأساسية التي بدأت منها تعاليم هذه العقيدة، وقد جهر القرآن دائمًا بمبدأ الوحدانية، في عظمة وجلال وصفاء لا يعتريه التحول، ومن العسير أن نجد في غير الإسلام ما يفوق تلك المزايا. وإن هذا الإخلاص كمبدأ الدين الأساسي، والبساطة الجوهرية في الصور التي يُصاغ فيها هذا الدين، والدليل الذي كسبه هذا الدين من اقتناع الدعاة الذين يقومون بنشره اقتناعًا يلتهب حماسة وغيرة، إن هذا كله يكوّن الأسباب الكثيرة التي تفسر لنا نجاح جهود دعاة المسلمين.

وكان من المتوقع لعقيدة محددة كل التحديد، خالية كل الخلو من جميع التعقيدات الفلسفية، ثم هي تبعًا لذلك في متناول إدراك الشخص العادي، أن تمتلك، وإنها لتمتلك فعلًا قوة عجيبة لاكتساب طريقها إلى ضمائر الناس»[1].

٣ـ وشهادة الفيلسوف السياسي الأمريكي «تايلور ـ جون» Ganon Taylor (١٧٥٣ ـ ١٨٢٤٩) التي يقول فيها:

«إنه من اليسير أن ندرك لماذا انتشر الإسلام بهذه السرعة في أفريقيا وآسيا. كان أئمة اللاهوت في أفريقيا والشام قد استبدلوا عقائد ميتافيزقية عويصة بديانة المسيح، فكان اعتزال العالم هو الطريق إلى القداسة، والقذارة صفة لطهارة الرهبنة، وكان الناس في الواقع مشركين يعبدون زمرة من الشهداء والقديسين والملائكة، كما كانت الطبقات العليا مخنثة يشيع فيها الفساد، والطبقات الوسطى مرهقة بالضرائب، ولم يكن للعبيد أمل في حاضرهم ولا مستقبلهم. فأزال الإسلام بعون من الله هذه المجموعة من الفساد والخرافات. لقد كان ثورة على المجادلة الجوفاء في العقيدة، **وحجة قوية ضد تمجيد الرهبانية، باعتبارها رأس التقوى. ولقد بين أصول الدين التي تقول بوحدانية الله وعظمته، كما بين أن الله رحيم عادل يدعو إلى الامتثال لأمره والإيمان به وتفويض الأمر إليه. وأعلن أن المرء مسئول، وأن هناك حياة أخرى ويومًا للحساب، وأعد للأشرار عقابًا أليمًا، وفرض الصلاة والزكاة والصوم، وفعل**

(١) المصدر السابق. ص ٤٥٤ـ٤٥٦.

obeikandl.com

الخير، ونبذ الفضائل الكاذبة والدجل الديني والترهات والنزعات الأخلاقية الضالة، وسفسطة المنازعين في الدين، وأحل الشجاعة محل الرهبنة، ومنح العبيد رجاء، والإنسانية إخاء، ووهب الناس إدراكًا للحقائق الأساسية التي تقوم عليها الطبيعة البشرية[١].

كما كان الإسلام رد فعل ضد النظام الكنسي البيزنطي، الذي كان يمثل الإمبراطور ورجال بلاطه صورة من الجلالة الإلهية في الأعالي، ويُنظر إلى الإمبراطور نفسه لا على أنه الحاكم الدنيوي فحسب، بل على أنه الكاهن الأكبر كذلك[٢].

إننا لم نسمع في ظل الإسلام عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي، ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصي بها «فرديناند» (١٤٥٢ ـ ١٥١٧) و«إيزابيلا» (١٤٥١ ـ ١٥٠٤م) دين الإسلام من أسبانيا، أو التي جعل بها «لويس الرابع عشر» (٦٣٨ ـ ١٧١٥م) المذهب البروتستانتي مذهبًا يعاقب عليه متبعوه في فرنسا، أو بتلك السهولة التي ظل بها اليهود مبعدين من إنجلترا مدة خمسين وثلاثمائة سنة[٣].

ويمكن أن نرجع كثيرًا من اضطهادات المسيحيين في البلاد الإسلامية **إما إلى الشك في ولائهم، الذي كانت تثيره دسائس المسيحيين الغرباء وأعداء الإسلام وتدخلهم في شئونهم، أو إلى الشعور السيئ الذي أثاره المسلك القائم على الخيانة والقسوة الذي ظهر به هؤلاء الأجانب نحو المسلمين**[٤].

ويظهر أن أمثال سورات الاضطهاد هذه قد أثارها في بعض الحالات هؤلاء المسيحيون الذين شغلوا مناصب عالية في خدمة الحكومة من جراء إساءة استعمال سلطتهم، فأثاروا على أنفسهم ـ بظلمهم المسلمين ـ شعورًا قويًّا من الاستياء. وقد قيل: إنهم استغلوا مناصبهم العالية في سلب أموال المؤمنين ومضايقتهم ومعاملتهم بشيء كثير من الغلظة والقحة، وتجريدهم من أراضيهم وأموالهم. كما تعرضوا أيضًا لبغض كثير من المسلمين باستخدامهم

(١) المصدر السابق. ص٩٠.
(٢) المصدر السابق. ص٩١.
(٣) المصدر السابق. ص٩٨، ٩٩.
(٤) المصدر السابق. ص٩٥، ٩٦.

obeikandl.com

عيونًا للدولة العباسية، ومطاردة أشياع البيت الأموي الذي أُقصي عن الحكم. وفي عصر متأخر اتهم المسيحيون في زمن الحروب الصليبية باتصالهم بالصليبيين اتصالًا ينطوي على الخيانة، فجلبوا على أنفسهم قيودًا شديدة الحرج ليس من العدل أن نصفها بأنها اضطهاد ديني»[١].

٤ ـ وشهادة المستشرق الإيطالي الأمير «كيتاني» Caetani (١٨٦٩ ـ ١٩٢٦م) التي يقول فيها:

«إن انتشار الإسلام بين نصارى الكنائس الشرقية إنما كان نتيجة شعور باستياء من السفسطة المذهبية التي جلبتها الروح الهيلنية إلى اللاهوت المسيحي.

أما الشرق، الذي عرف بحبه للأفكار الواضحة البسيطة، فقد كانت الثقافة الهيلنية وبالًا عليه من الوجهة الدينية؛ لأنها أحالت تعاليم المسيح البسيطة السامية إلى عقيدة محفوفة بمذاهب عويصة مليئة بالشكوك والشبهات، فأدى ذلك إلى خلق شعور من اليأس، بل زعزع أصول العقيدة الدينية ذاتها.

فلما أهلّت آخر الأمر أنباء الوحي الجديد فجأة من الصحراء، لم تعد تلك المسيحية الشرقية التي اختلطت بالغش والزيف وغرقت بفعل الانقسامات الداخلية، وتزعزعت قواعدها الأساسية، واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذه الريب، لم تعد المسيحية بعد ذلك قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد الذي بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة، وقدم مزايا مادية جليلة إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التي لا تقبل الجدل. وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتمى في أحضان نبي بلاد العرب[٢].

إن العرب لم يضطهدوا أحدًا من أجل الدين، كما أنهم لم يعملوا على ضم أحد إلى دينهم، ومن ثم تمتع المسيحيون الساميون، في ظل الإسلام، بعد الفتوحات الأولى بحرية لم يتمتعوا بها من قبل طيلة أجيال عديدة.

وهناك شواهد كثيرة تبين أن المسيحيين قلما كانوا في عهد الفتوحات الإسلامية الأولى يشكون مما يضعف من قوة دينهم،

(١) المصدر السابق. ص٩٧، ٩٨.
(٢) المصدر السابق. ص ٨٩، ٩٠.

openkandil.com

ونستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام، إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة، وأن العرب المسيحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على التسامح..»[١].

٥ـ وشهادة المستشرق «لايارد» Layard التي يقول فيها:

«لا شك أن التحول إلى الإسلام كان يقترن ببعض مزايا مالية معينة، ولكنه لم يكن من الممكن أن يكون للدين القديم إلا تأثير ضئيل على هؤلاء الذين تحولوا إلى الإسلام لا لشيء إلا ليظفروا بإعفائهم من أداء الجزية، وعندئذ كان على الذين يتحولون إلى الإسلام أن يؤدوا بدلًا من الجزية الصدقات الشرعية، وهي الزكاة التي كانت تفرض سنويًّا على معظم أنواع الممتلكات المنقولة والعقارية[٢].

ولم يكن الغرض من فرض ضريبة الجزية على المسيحيين ـ كما يريدنا بعض الباحثين على الظن ـ لونًا من ألوان العقاب لامتناعهم عن قبول الإسلام، وإنما كانوا يؤدونها مع سائر أهل الذمة، وهم غير المسلمين من رعايا الدولة الذين كانت تحول ديانتهم بينهم وبين الخدمة في الجيش، في مقابل الحماية التي كفلتها لهم سيوف المسلمين[٣].

ومن الواضح أن أي جماعة مسيحية كانت تعفى من أداء هذه الضريبة إذا ما دخلت في خدمة الجيش الإسلامي، وكان الحال على هذا النحو مع قبيلة الجراجمة، وهي قبيلة مسيحية كانت تقيم بجوار أنطاكية، سالمت المسلمين، وتعهدت أن تكون عونًا لهم، وأن تقاتل معهم في مغازيهم، على شريطة ألا تؤخذ بالجزية، وأن تُعطى نصيبها من الغنائم.

ولما اندفعت الفتوح الإسلامية إلى شمال فارس سنة ٢٢هـ أُبرم مثال هذا الحلف مع إحدى القبائل التي تقيم على حدود هذه البلاد، وأُعفيت من أداء الجزية مقابل الخدمة العسكرية، ونجد أمثلة شبيهة بهذه للإعفاء من الجزية في حالة المسيحيين الذين عملوا في الجيش أو الأسطول في ظل الحكم التركي.

(١) المصدر السابق. ص٧٠.
(٢) المصدر السابق. ص٧٧، ٧٨.
(٣) المصدر السابق. ص٧٩.

obeikandl.com

إن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة عن التصديق. إن نظرية العقيدة الإسلامية تلزم التسامح، وحرية الحياة الدينية لجميع أتباع الديانات الأخرى..»[١].

٦ـ وشهادة اللاهوتي الإيطالي الأب «مراتشي» Marracci (١٦١٢ ـ ١٧٠٠) ـ مترجم القرآن إلى الإيطالية ـ التي يقول فيها:

«لو قارن كافر بين أسرار الحالة الطبيعية البسيطة التي فاقت طاقة الذكاء البشري، أو التي هي، على الأقل، من الصعوبات بمكان، إن لم تكن مستحيلة ـ (العقيدة المسيحية) ـ وبين عقيدة القرآن، لانصرف عن الأولى في الحال، وأسرع إلى الثانية في ترحيب وقبول[٢].

ولم يكن النشاط الروحي للإسلام ـ كما زعم عدد كبير جدًّا من الناس ـ متمشيًا مع سلطانه السياسي، بل على العكس من ذلك نجد فقدان السلطة السياسية والانتعاش المادي، يعمل على إبراز أجمل الصفات الروحية التي تعد أصدق البواعث التي تحفز على القيام بأعمال الدعوة..»[٣].

٧ـ وشهادة المفكر الإنجليزي «كارليل» (١٧٩٠ ـ ١٨٤٣م) التي يقول فيها:

«إن من أسباب انتشار الإسلام بساطة العقيدة الإسلامية ـ لا إله إلا الله محمد رسول الله ـ.

وكل ما يطلب من الذي يدخل في الإسلام قبول هاتين الشهادتين. إن هذه العقيدة البسيطة تجربة كبيرة للإيمان، ولا تثير في العادة مصاعب عقلية خاصة، ولما كانت خالية من المخارج والحيل النظرية اللاهوتية، كان من الممكن أن يشرحها أي فرد، حتى أقل الناس خبرة بالعبارات الدينية النظرية[٤].

٨ـ وشهادة الرحالة الفرنسي «تافرنيه» Tavemier (١٦٠٥ ـ ١٦٨٩م) التي يقول فيها:

«لقد كان من السهل على أي حاكم من حكام المسلمين الأقوياء أن يستأصل شأفة رعاياه المسيحيين أو ينفيهم من بلادهم، كما فعل الأسبان بالعرب، والإنجليز باليهود مدة أربعة قرون تقريبًا، وكان من الممكن تمامًا أن ينفذ سليم الأول (٨٧٥ ـ ٩٢٦هـ ١٤٨٠ ـ

(١) المصدر السابق. ص٨٠.
(٢) المصدر السابق. ص٤٥٤.
(٣) المصدر السابق. ص٤٦٩.
(٤) المصدر السابق. ص٤٥٤.

obeikandl.com

١٥٢٠م ـ في سنة ١٥١٤ ـ أو إبراهيم (١٠٤٩ ـ ١٠٥٨ هـ ـ ١٦٤٠ ـ ١٦٤٨م) ـ في سنة ١٦٤٦ م ـ تلك الفكرة البربرية التي تصورها للقضاء على رعاياه المسيحيين، ولكن طبقة المفتي، الذين صرفوا أذهان سادتهم عن مثل هذا الغرض الذي ينطوي على القسوة، إنما فعلوا ذلك باعتبارهم أئمة الشريعة الإسلامية والتسامح الإسلامي.

إن المبدأ الذي وجد قبولًا عظيمًا في ألمانيا في القرن السابع عشر ـ وهو أن لكل منطقة دينها الخاص ـ لم يقبله قط عاهل مسلم..»[١].

٩ ـ أما المؤلف النسطوري ـ «ماري بن سليمان» (منتصف القرن الثاني عشر الميلادي) فقد قال:

«إنه حول نهاية القرن العاشر أسلم خلق كثير، وكان أصل ذلك تجوّز الناس في أديانهم، وقبح سيرة الكهنة في المذابح والبيع وبيوت المقدس..»[٢].

١٠ ـ وشهادة الكاتب والسياسي الفرنسي «جوبينو ـ جوزيف آرثر» Gobineeou (١٨١٦ ـ ١٨٨٢م) التي يقول فيها:

«إننا لا نجد دينًا أكثر تسامحًا، بل يمكن أن يقال على وجه التقريب، أكثر بعدًا عن الاكتراث للعقيدة الفردية من الإسلام. لقد كان التسامح إلى أقصى حد هو القاعدة المستمدة من الأصول الإسلامية..»[٣].

١١ ـ وشهادة المستشرق «ملمان» Dean Milman التي يقول فيها:

«كانت الأحزاب الدينية يناوئ بعضها بعضًا، ورجال الكنيسة يتنازعون فيما بينهم على أشد مسائل الدين إبهامًا وأكثرها غموضًا، فيما يتعلق بما وراء الطبيعة في العقيدة الدينية.

فكم من أناس لابد أن يكون هذا الجدل قد زعزع أسس عقيدتهم! وكم كان غريبًا لو أن هؤلاء الآلاف من الناس لم يلتمسوا، وهم في ضجرهم وحيرتهم، ملجأ من هذه المجادلات التي لا تنتهي عند حد ولا تعرف اللين والتسامح، في تلك الحقيقة البسيطة الواضحة، حقيقة الوحدانية الإسلامية؟!.»[٤].

١٢ ـ وشهادة المستشرق الإنجليزي «جورج سيل» G .Sale (١٦٩٧ ـ ١٧٣٦) ـ مترجم القرآن إلى الإنجليزية ـ التي يقول فيها:

(١) المصدر السابق. ص ٤٦٤، ٤٦٥.
(٢) المصدر السابق. ص٩٨.
(٣) المصدر السابق. ص١٢٨.
(٤) المصدر السابق. ص٨٩.

obeikandl.com

«لقد صادفت شريعة محمد ترحيبًا لا مثيل له في العالم، وإن الذين يتخيلون أنها انتشرت بحد السيف إنما ينخدعون انخداعًا عظيمًا..».

١٣ ـ وشهادة بطريرك أنطاكية اليعقوبي «ميخائيل الأكبر» Michael the Eldern (١١٢٦ ـ ١١٩٩م) التي يقول فيها:

«إن إله الانتقام، الذي تفرد بالقوة والجبروت، والذي يديل دولة البشر كما يشاء، فيؤتيها من يشاء، ويرفع الوضيع، لما رأى شرور الروم الذين لجأوا إلى القوة، فنهبوا كنائسنا وأديارنا في كافة ممتلكاتهم، وأنزلوا بنا العقاب في غير رحمة ولا شفقة، أرسل إلينا أبناء إسماعيل من بلاد الجنوب ليخلصنا على أيديهم من قبضة الروم.

وفي الحق، إننا إذا كنا قد تحملنا شيئًا من الخسارة بسبب ضياع الكنائس الكاثوليكية منا، وإعطائها لأهل خلقيدونية، فقد استمرت هذه الكنائس في حوزتهم، **ولما أسلمت المدن للعرب، خصص هؤلاء لكل طائفة الكنائس التي وجدت في حوزتها. ومع ذلك لم يكن كسبًا هينًا أن نتخلص من قسوة الروم، وأذاهم وحنقهم وتحمسهم العنيف ضدنا، وأن نجد أنفسنا في أمن وسلام..»**[٢].

١٤ـ وشهادة علماء الديموجرافيا الفرنسيون التي يقولون فيها:

«إن الأسلمة لم تكن قط شاملة، وأن تبني الإسلام قد ظل ضمن مجال الاختيار الحر وإن سلسلة من الطوائف غير المسلمة ظلت تواصل الحياة والحوار، بل وتزدهر في الشرق العربي ـ وأن السكان الذين تأسلموا إنما فعلوا ذلك بفضل الفرص على نحو أكثر بما لا يقاس مما بفضل الإكراه، كما كان هناك الزواج، وهو تعاقد سلمي بامتياز، فهو يؤدي إلى انتشار الإسلام الذي تنتمي إليه، بحكم الشريعة، ثمار زواج المسلم من كتابية.

كما أن من المميزات التي فتحت العقول والقلوب لاعتناق الإسلام هو «مجيئه في لغة مألوفة وتقديمه نفسه بوصفه امتدادًا للمسيحية واليهودية وتحقيقه المواطنة التامة لكل الذين دخلوا فيه..»[٢].

● وإذا كانت هذه الشهادات ـ لهؤلاء العلماء الأعلام ـ قد انطلقت من دراسة الواقع التاريخي لانتشار الإسلام، وتحول الشرق إلى قلب للعالم الإسلامي، بعد أن كان قلبًا للمسيحية؛ فإن

(١) المصدر السابق. ص٧٢، ٧٣.
(٢) (المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي) ص١١، ٢٢، ٣٨، ٦٣.

obeikandl.com

لغة الأرقام تظل هي الأفصح في التعبير عن حقائق التاريخ. وهذه الأرقام التي حققها علماء الديموجرافيا الفرنسيون تقول: «إنه بعد قرن من الفتح الإسلامي، ودخول الشرق في الدولة الإسلامية، **كانت نسبة المسلمين في رعايا هذه الدولة ٢٠٪ من السكان»!!**[١]

فأين هو الإكـراه على اعتناق الإسلام الذي يتحدث عنه المرجفون بعد هذه الشهادات وهذه الأرقام؟!.

***

لقد فرض ملك روسيا «فلاديمير» سنة ٩٨٨ م المسيحية على كل رعاياه فور اعتناقه لها، وظلت الدين الوحيد للبلاد حتى سنة ١٩٠٥ عندما صدر مرسوم التسامح الديني.

وكذلك فعل ملك الفرنجة «شارلمان» (٧٤٢ ـ ٨١٤م) مع السكسونيين.

وفعل ذلك أيضًا الملك «كنوت» (٩٩٥ ـ ١٠٣٥م) في الدانمارك.

وفي «الفيكن» ـ جنوبي النرويج ـ ذبح الملك (أولاف ترايجفيون» (٩٦٣ ـ ١٠٠٠م) جميع الذين أبوا الدخول في المسيحية!![٢].

فأين هذا من تاريخ الإسلام، الذي فتح الشرق، وظلل شعوبه بدولته ثم حرر ضمائرهم، مع تحرير أوطانهم، فتركهم وما يدينون حتى أن ٢٠٪ من السكان فقط هم الذين كانوا مسلمين من شعوب الشرق بعد قرن من الفتوحات؟!

● كذلك، لم تكن الجزية ـ التي هي بدل الجندية وليست بدلًا عن الإيمان بالإسلام ـ عامل ضغط للتحول إلى الإسلام؛ فشعوب الشرق ظلت عشرة قرون تدفع الجزية للإغريق والرومان، ولم تتحول إلى دين الإغريق والرومان لتعفى من دفع هذه الجزية.

والمصريون ـ في ظل القهر الروماني ـ قدموا ـ مع الجزية ـ أرواحهم دفاعًا عن دينهم، ولم يُؤْثروا الحياة ـ فضلًا عن الجزية ـ بديلًا لهذا الدين!

بل إن شعوب المشرق العربي ـ من المسلمين والمسيحيين ـ قد دفعت الجزية للصليبيين قرنين من الزمان (٤٨٩ ـ ٦٩٠هـ ـ ١٠٩٦ ـ ١٢٩١م) دون أن تفرط في عقيدتها أو هويتها الحضارية في سبيل الإعفاء من هذه الجزية!

(١) المصدر السابق. ص٢٥.
(٢) (الدعوة إلى الإسلام) ص٣٠ ـ ٣٢.

obeikandl.com

ولقد مارس التبشير الكاثوليكي الفرنسي وسائل الترغيب والترهيب في الجزائر قرنًا وثلث القرن ولم تزد الحصيلة عن ألف من حثالة البربر المنبوذين!.

فأين من ذلك كله ذلك الانتشار السلمي للإسلام على النحو الذي شهد به وعليه العلماء من غير المسلمين؟!

١٥ـ كذلك يشهد المؤرخ الإنجليزي «بتلر» ـ شهادة حديثة ـ على هذه الحقائق فيقول:

«إن بعض القبط أخذوا عند الفتح يختارون الإسلام، ويفضلون الدخول فيه على دفع الجزية. ولقد رأوا أن الإسلام يجعل لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، ويساويهم بالفاتحين في شرف محلهم، ويجعلهم إخوانهم في كل شيء، يسهم لهم في الفيء، ولا يفرض عليهم الجزاء. فكان في ذلك باعث قوي لكثير منهم على الدخول في الإسلام، لا سيما وقد طحن «قيرس»[١] عقيدتهم طحنًا، وحطم يقينهم باضطهاده. وكذلك دخل في الإسلام كثير من الروم، بعضهم جنود وبعضهم ممن حل في مصر منهم. وفي هؤلاء يقول «النقيوسي»: «قوم ارتدوا عن دينهم المسيحي، ودخلوا في دين البهائم»!.

وليس من العدل أن يقول قائل: إن كل من أسلم من القبط إنما كان يقصد الدنيا وزينتها. إنه مما لا شك فيه أن كثيرًا منهم أسلم لما كان يطمع فيه من مساواة بالمسلمين الفاتحين، حتى يكون له ما لهم، ولكن هذه المطامع ما كانت لتدفع إلا من كانت عقائدهم غير راسية. **أما الحقيقة المرة فهي أن كثيرين من أهل الرأي والحصافة قد كرهوا المسيحية لما كان منها من عصيان لصاحبها، إذ عصت ما أمر به المسيح من حب ورجاء في الله، ونسيت ذلك في ثوراتها وحروبها التي كانت تنشب بين شيعها وأحزابها. ومنذ بدا ذلك لهؤلاء العقلاء لجئوا إلى الإسلام فاعتصموا بأمنه، واستظلوا بوداعته وطمأنينته وبساطته»** [٢].

● ولقد كانت مصر استثناء في سرعة انتشار الإسلام بها؛ لأنها لم تكن كاملة المسيحية عند الفتح الإسلامي، «**إذ كانت المسيحية دين نصف المصريين تقريبًا في سنة ٦٤١م**»[٣] **وهؤلاء المسيحيون**

(١) بطرك الروم.
(٢) (فتح العرب لمصر) ص٣٠٥، ٤٥٨.
(٣) (الوطن الأم) ص٦٠.

obeikandl.com

المصريون ـ الذين كان تعدادهم أقل من نصف السكان ـ لم يكونوا كلهم من الأرثوذكس، وإنما كان منهم «الآريسيون»ـ الموحدون ـ الذين دخلوا الإسلام فور دخول الجيش الإسلامي الفاتح إلى البلاد ـ لما وجدوا في الإسلام من تصديق لعقيدتهم الموحدة ـ ولما كان بينهم وبين الأرثوذكس والملكانيين من صراعات ـ.

كما كان من نصارى مصر النساطرة، الذين يذكر «لين بول» أن كبير أساقفتهم «أبو مريم» ـ الجاثليق ـ البطريق ـ قد انضم إلى جيش عمرو بن العاص»[٣].

أما باقي السكان، فكانوا على الوثنية المصرية القديمة، وهؤلاء قد اعتنقوا الإسلام حتى قبل تمام الفتح وسقوط الإسكندرية؛ لأنهم عاشوا مضطهدين من الملكانيين الرومان، ومن الأرثوذكس المصريين جميعًا فكان في الإسلام خلاصهم من الاضطهاد ومن الوثنية على حد سواء!.

نعم هذه شهادات العلماء ـ من المستشرقين، واللاهوتيين، والفلاسفة ـ، والمؤرخين، وعلماء الديموجرافيا من مختلف أقطار الحضارة الغربية ـ على أن انتشار الإسلام في الشرق إنما تم بجاذبيته الذاتية، ومنطقه العقلاني، وبساطة توحيده، وإشباعه للحاجات الفطرية الإنسانية، وتحقيقه الطمأنينة لهذا الإنسان في المعاش والمعاد، وعلى أن تراجع المسيحية في الشرق إنما كان بسبب ما أصاب لاهوتها من غموض وتعقيد خرج به عن المعقول، وما صاحب ذلك من فساد وجهالة وعجز في مؤسسات هذا اللاهوت يشهد عليها ـ مع الشهود الأجانب ـ مؤرخ قبطي وطني ـ هو يعقوب نخلة روفيلة ـ الذي يقول: «**لقد ظهر بين المسيحيين أنفسهم ما أدى إلى النفور والبغضاء والإيقاع ببعضهم البعض، وذلك أن بعض أئمة الدين داخلهم الطمع والاستقلال بالرئاسة، فكثر ظهور البدع والشيع بين النصارى، فانقسموا على ذاتهم، وانشقوا إلى فئات متعددة، كل فئة تلعن الأخرى وتحرمها وتزيف معتقدها ومذهبها:**

كـــل يـــؤيـــد ديـــنـــه يا ليت شعري ما الصحيح؟!

وانتهى هذا الجدل والشقاق في مصر بوجود حزبين متضادين لبعضهما وهما القبط والروم مما أدى بهم، ولا سيما الأقباط؛ إلى

(١) (فتح العرب لمصر) ص٥٢٧.

obeikandl.com

الاضمحلال والدمار. ومن الغريب أن الأئمة الذين من واجبهم حث الناس على المؤاخاة والموالاة هم الذين كانوا يوغرون صدور الملوك ويحرضون الحكام على إيقاع الأذى والتنكيل بالفريق الآخر المخالف لرأيهم، كل هذا وزعماء الدين واقفون موقف المتفرج المتشفي، معتقدون أنهم خدموا الدين خدمة يمدحون أو يثابون عليها، وما دروا أنهم خلدوا لأنفسهم في التاريخ ذكرًا رديئًا مقرونًا بعار لا يمحوه مرور الأيام والدهور[1].

هكذا شهد أهل الذكر ـ من غير المسلمين ـ على أسباب انتشار الإسلام، وعلى أسباب تراجع المسيحية ـ في الشرق ـ عقب الفتوحات الإسلامية، التي بدأ بها التاريخ الجديد للشرق والشرقيين.

***

لكن ليس معنى براءة الإسلام من الإكراه الديني، وبراءة الفتوحات الإسلامية من الإكراه الديني، أن ندعي براءة التاريخ الإسلامي من المظالم والتوترات والسلبيات، التي كثيرًا ما جوبهت بالانتفاضات والتمردات والثورات.

فالمجتمع ـ أي مجتمع ـ وفي أية حضارة أو تاريخ ـ هو كالمعدة بالنسبة للإنسان، تعتريه عوامل الصحة وعوامل المرض، وأسباب الطمأنينة وأسباب القلق والتوترات.

ولقد شهد التاريخ الإسلامي عهود العدل وعهود الجور، كما شهد العهود التي اختلط فيها العدل بالجور، وبهذه الحقيقة التي هي سنة من سنن الاجتماع البشري، التي لا تبديل لها ولا تحويل، تنبأ رسول الإسلام ﷺ عندما قال: «لا يزال الجور بعدي إلا قليلًا حتى يطلع، فكلما طلع من الجور شيء ذهب من العدل مثله، حتى يولد في الجور من لا يعرف غيره. ثم يأتي الله تبارك وتعالى بالعدل، فكلما جاء من العدل شيء ذهب من الجور مثله، حتى يولد في العدل من لا يعرف غيره» ـ رواه الإمام أحمد ـ.

لكن معايير إقامة العدل وممارسة الجور لم تكن ـ في تاريخنا ـ «دينية أو طائفية»، وإنما كانت ـ في الأساس ـ اجتماعية، فثورات مصر ـ مثلًا ـ كانت مصرية، ولم تكن وقفًا على المسيحيين أو خاصة

(١) (تاريخ الأمة القبطية) ص٢٧، ٢٩.

obeikandl.com

بالمسلمين، ويشهد على ذلك المؤرخون، فيقولون: «**ولم يثر الأقباط إلا إذا ثار مواطنوهم المسلمون، وسرعان ما كانوا يخضعون إذا ما ترك المسلمون القتال**. ولقد قامت ثورات هامة بين سنة ١٢١هـ سنة ٧٣٩م وسنة ١٥٦هـ سنة ٧٧٣م، ولكن نشبت أكبر ثورة سنة ٢١٦ هـ سنة ٨٣١ م أيام خلافة المأمون وقد لوحظ انضمام عدد كبير من المسلمين إلى النصارى في ثورتهم وكتب المقريزي ـ في هذا الصدد ـ: «لما كان في جمادى الأولى سنة ٢١٦هـ **انتفض أسفل الأرض بأسره، عرب البلاد وقبطها**، وأخرجوا العمال وخلعوا الطاعة لسوء سيرة عمال السلطان فيها، فكانت بينهم وبين عساكر الفسطاط حروب»[١].

أما البشموريون ـ الذين قمع المأمون ثورتهم سنة ٢١٦هـ ـ والذين صوّر المرجفون ثورتهم بالثورة المسيحية ضد الحكم الإسلامي، وكتبوا في ذلك الروايات[٢] ، فإنها تمرد عنصري لجماعة من بقايا الرومان، سكنوا أرض المستنقعات ـ بين الإسكندرية ورشيد ـ، ويقول عنهم سعيد بن بطريق: «**إنهم سلالة أربعين يونانيًا بقوا في مصر بعد انتصار العرب ـ (على الرومان) ـ ثم نما عددهم بالتزاوج**» ويصفهم المقريزي بأنهم «كانوا أكثر توحشًا وتعنتًا من سائر سكان مصر، وأن تمردهم قد استمر بعد فتح الإسكندرية على يد عمرو بن العاص. ولقد قتلوا في تمردهم كل السكان المسلمين في رشيد، ولم يكن تمردهم تمردًا مسيحيًّا ضد الحكم الإسلامي، بدليل عصيانهم لنصائح البطريرك القبطي «يوساب». بل لقد انقضوا على الأساقفة الذين حملوا إليهم رسائل البطريرك وجردوهم من ملابسهم وأمتعتهم وطردوهم بعد أن أوسعوهم سبًّا وشتما[٣].

فلم يكن هذا التمرد ثورة مسيحية. وإنما كان تمردًا يونانيًّا عنصريًّا تبرأت منه الكنيسة المصرية وبطركها «يوساب» وبعبارة المؤرخ المسيحي د. جاك تاجر: «**فلا يجوز اعتبار ثورة البشموريين استثناء من اشتراك الأقباط مع المسلمين في الثورات؛ لأن هؤلاء البشموريين من أصل يوناني**»[٤].

● أما الهبات والتمردات التي اتخذت طابعًا طائفيًّا، والتي ثار فيها العامة على الأقباط، فلقد كانت في حقيقتها هبات وتمردات

(١) (خطط المقريزي) جـ١ ص٧٩ ـ ٨٩.
(٢) انظر: سلوى بكر: (البشموري) جـ١، ٢. طبعة المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة سنة ٢٠٠٢
(٣) (أقباط مسلمون منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢م) ص٩٨ ـ ١٠٢ ـ وهو ينقل عن ساويرس بن المقفع ص ٢٧٦، ٢٧٧.
(٤) المرجع السابق، ص٣١٥.

obeikandl.com

اجتماعية، ضد نظام الولاة الذين اتخذوا من الأقليات أدوات للجباية والظلم والإفقار لجماهير المسلمين.

لقد كانت الإدارة احتكارًا بيد نخبة من الأقباط، حتى لقد قال المستشرق الألماني الحجة «آدم متز»: «**لقد كان النصارى هم الذين يحكمون بلاد الإسلام**»[١]. وكانت هذه النخبة القبطية تستنزف ـ بالجباية والمظالم ـ جماهير الناس ـ وأغلبيتهم الساحقة مسلمون ـ، وتحابي أبناء دينها، بل وتستفز مشاعر المسلمين، الأمر الذي فجر عدة تمردات طالت أغلب المسيحيين. وبشهادة الكاتب المسيحي «جورج قرم»: «**فإنه كثيرًا ما كان موقف أبناء الأقليات أنفسهم من الحكم الإسلامي، حتى عندما كان يعاملهم بأكبر قدر من التسامح، سببًا في نشوب قلاقل طائفية، فعلاوة على غلو الموظفين الذميين في الابتزاز، وفي مراعاتهم وتحيزهم لأبناء دينهم إلى حد الصفاقة؛ كثيرًا ما كانت تصدر منهم استفزازات طائفية بكل معنى الكلمة**»[٢].

ولقد كان الولاة يواجهون هذه التمردات الاجتماعية ـ التي اتخذت طابعًا طائفيًّا ـ بما يحقق مقاصد الولاة فكانوا:

١ـ يبطشون بالعامة، معلقين الكثيرين منهم على أعواد المشانق لإرهابهم.

٢ـ ويصادرون ـ في ذات الوقت ـ الثروات الفاحشة التي جمعها أبناء هذه الأقليات، وذلك لتهدئة خواطر العامة وتسكين مشاعر الجماهير!.

ولقد وصف المقريزي ـ وهو عمدة المؤرخين الاجتماعيين ـ تجبر الأقلية القابضة على زمام الإدارة والجباية، وكراهية الجماهير لها بقوله: «**إن الناس قد أبغضوا كُتّاب النصارى، واتهموا الأمراء بمحاباتهم، وطلبوا من السلطان أن يعزلهم من الديوان، وذلك لكثرة فساد النصارى، وزيادة طغيانهم، وليكون ما وقع ـ (من التمرد) ـ نقمة وعذابًا لهم**»!.

بل ويتحدث عن زيادة جبروت من تظاهر بالإسلام من أبناء هذه الأقلية، فيقول: «**ولقد زاد تسلطهم بعد إسلامهم، وأظهروا من التجبر ما كانت تمنعهم نصرانيتهم من إظهاره، فكتب أحد الشعراء إلى الأمير بيدر النائب يقول:**

(١) (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) جـ ١، ص١٠٥.

(٢) جورج قرم (تعددية الأديان ونظم الحكم. دراسة سوسيولوجية وقانونية مقارنة) ص٢٢٤، طبعة بيروت.

obeikandl.com

أسلم الكافرون بالسيف قهرًا وإذا ما خلوا فهم مجرمونا
سلموا من رواح مال وروح فهم سالمون لا مسلمونا![١]

وفي ظل حكم الدولة الفاطمية (٢٩٧ ـ ٥٦٧هـ ٩٠٩ ـ ١١٧١م) ـ الشيعية الإسماعيلية ـ الباطنية ـ التي حكمت أمة على مذهب أهل السنة والجماعة ـ استندت هذه الدولة إلى الأقليات النصرانية واليهودية ـ فشهد حكمها أعلى نسبة من الوزراء اليهود والنصارى في تاريخ الدولة الإسلامية، وأعلى نسبة من التجبر والثراء لهذه الأقليات، حتى أصبح ذلك موضوعًا للشكوى، والتهكم من الشعراء؛ فسجل الشاعر المصري الحسن بن بشر الدمشقي تذمر الأمة وسخريتها من «الثالوث الحاكم»: الوزير يعقوب بن كلس (٣١٨ ـ ٣٨٠هـ ٩٣٠ ـ ٩٩٠م) والقائد الفضل (٤٠٠هـ ١٠١٠م) والخليفة الفاطمي العزيز (٣٤٤ ـ ٣٨٦هـ ٩٥٥ ـ ٩٩٦م) فقال:

تنصَّر فالتنصّر دين حق سلموا عليه زماننا هذا يدل فهم
وقل بثلاثة عزوا وجلوا وعطِّل ما سواهم فهو عطل

فيعقوب الوزير أب، وهذا العزيز ابن، وروح القدس فضل![٢]

وقال الشاعر ابن الخلال:

إذا حكم النصارى في الفروج وغالوا في البغال والسروج
وذلت دولة الإسلام طرًّا وصار الأمر في أيدي العلوج
فقل للأعور الدجال هذا زمانك إن عزمت على الخروج[٣]

أما عن استبداد اليهود بالمال والإدارة والوزارة ـ في العهد الفاطمي ـ فقد قال الشاعر المصري الحسن بن خاقان ـ معرِّضًا ومتهكمًا:

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهم ومنهم المستشار والملك
يا أهل مصر إني نصحت لكم تهوَّدوا فقد تهوّد الفَلَك![٤]

هكذا خلا تاريخنا الإسلامي من المظالم الدينية والطائفية، وإن لم يخل من المظالم الاجتماعية، وهكذا كانت التمردات والانتفاضات التي اتخذت مظهرًا طائفيًّا هي في حقيقتها تمردات وانتفاضات

(١) (خطط المقريزي) جـ٣ ص٥٧٠، ٥٤٥ـ٥٤٧.
(٢) المقريزي (اتعاظ الحنفا بأخبار الفاطميين الخلفا) جـ ١ ص ٢٩٨. تحقيق: د. محمد حلمي محمد. طبعة القاهرة سنة ١٩٩٦.
(٣) (خطط المقريزي) جـ٢ ص١٢٣.
(٤) (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) جـ١ ص١١٧، ١١٨. (وفي عهد الخليفة الفاطمي العزيز بالله (٣٦٥ ـ ٣٨٦هـ ٩٧٥ـ٩٩٦م) استوزر المسيحي عيسى بن نسطورس، واليهودي منشا إبراهيم القزاز «فاعتز بهما النصارى واليهود، وآذوا المسلمين، فعمد أهل مصر وكتبوا «قصة.. منشورًا» جعلوها في يد تمثال من ورق، ووضعوها في طريق العزيز، فتناولها فوجد مكتوبًا فيها: «بالذي أعز اليهود بمنشا، والنصارى بعيسى بن نسطورس، وأذل بك المسلمين، إلا كشفت ظلامي»؟! (المقريزي (اتعاظ الحنفا) ص٢٩٧. وابن كثير (البداية والنهاية) جـ١ ص٣٢٠.

obeikandl.com

اجتماعية ضد مظالم سلطات الإدارة والجباية، التي رضيت أن تكون سوط عذاب يلهب ظهور جماهير المحكومين، لحساب الظلمة من الولاة والحكام.

***

وبعد

فتلك هي وقائع الفتح الإسلامي لمصر ـ نموذجًا للفتوحات الإسلامية التي حررت الشرق من القهر الروماني الذي دام عشرة قرون، والتي حررت الضمائر مع الأوطان، والتي مثلت فتحًا فريدًا في تاريخ الفتوحات، فلم تدخل بها البلاد في الدين الجديد فقط، وإنما دخلت في الهوية الحضارية العربية الإسلامية، بمكوناتها اللغوية والثقافية، ونظرتها للكون، وفلسفتها في التقدم، ومذهبها في التعامل مع الذات ومع الآخرين.

لقد استعصت مصر ـ رغم كثرة الغزوات والفتوحات التي شهدتها قبل الإسلام ـ على الاندماج في هوية الغزاة والفاتحين، وظل تميزها في الهوية الحضارية سلاحًا تقاوم به مذاهب الغزاة والفاتحين، لكن الفتح الإسلامي ـ بسب أنه فتح تحرير ـ قد احتضن تراث مصر وشخصيتها، فأحيى مواريثها الحضارية الوطنية، حتى أن عاصمة الفاتحين ـ الفسطاط ـ كانت امتدادًا للعاصمة الوطنية المصرية ـ «منف» التي خصها المصريون بالولاء عبر التاريخ، وسرعان ما تحولت ـ الفسطاط ـ إلى عاصمة لكل المصريين، ولم تكن عاصمة للفاتحين، خاصة بهم، كما كانت «أواريس» بالنسبة للهكسوس و«الإسكندرية» بالنسبة للإغريق والرومان والبيزنطيين، ثم كان الإحياء الإسلامي لمصر، التي ما إن خرجت من دور النقاهة ـ بعد قهر القرون العشرة ـ حتى نهضت بدورها الرائد في إحياء الحضارة الإسلامية والعلوم الإسلامية، وفي حراسة وطن الإسلام من غزو الغزاة، كما غدت قاعدة لنشر الإسلام ونموذجًا للتعايش بين أصحاب الديانات.

لقد غدت مصر الإسلامية ـ في أغلب عصورها الإسلامية ـ عاصمة خلافة ومركز سلطنة ولم تقنع بمكان الولاية في دار

obeikandl.com

الإسلام، وصدقت ـ بذلك ـ النبوءة العبقرية للبطل الفاتح عمرو بن العاص، الذي كان ينظر لمستقبلها بنور الله، عندما وصفها فقال: «**إن مصر ولاية جامعة، تعدل خلافة**»!

نعم، كان الفتح الإسلامي لمصر فتحًا في الهوية الحضارية العربية الإسلامية، غدت به مصر الحارس الأول لهذه الهوية الحضارية في مواجهة أشرس التحديات ـ الصليبية، والتترية والإمبريالية والصهيونية ـ وبه دخلت طورًا جديدًا وفارقًا في تاريخها الطويل والعريق وبعبارة أحد أساتذة التاريخ:

«**فلقد استغرقت عهود السيطرة الهندية الأوروبية في مصر أكثر من ١١٠٠ سنة ـ قبل الفتح العربي الإسلامي بدأت بغزوة الفرس سنة ٥٢٥ ق.م فاليونان بقيادة الإسكندر سنة ٣٣٣ق.م فالبطالمة من بعده، فغزوة الرومان سنة ٣٠ ق.م فالبيزنطيين في سنة ٢٨٤م فالفرس في سنة ٦١٦م.**

وكل هؤلاء ينتمون إلى الشعوب الهندية الأوروبية، وعلى الرغم من تلك الفترة الطويلة التي سيطروا فيها، والمحاولات الكثيرة التي قاموا بها لفرض ثقافتهم الخاصة، ولا سيما اليونانية، على أهل مصر، لم يجدوا صدى عميقًا في نفوس المصريين.

ولقد خرج العرب إلى مصر، كما خرجوا إلى العالم، يحملون رسالة الإسلام التي لا تفرق بين الناس، إلا على أساس الإيمان والتقوى، وفي سبيل تبليغ الرسالة، اضطر العرب إلى محاربة حكومات الطغاة التي سيطرت على البلدان المجاورة لهم، وما إن عرفت شعوب تلك البلدان حقيقة هذه الرسالة حتى وجدوا فيها مخرجًا مما كانوا فيه من شدة، وملاذًا مما فرض عليهم من طغيان، فرحبوا بالرسالة الجديدة.

ولقد بادرت جموع ضخمة من المصريين إلى اعتناق الإسلام قبل أن يتم الفتح، وعبروا عن ترحيبهم بالحكم الجديد وبسياسة عمرو بن العاص، ولم يكد ينقضي القرن الثالث الهجري حتى كان الكثرة من أهل مصر قد أسلموا»[1].

(١) د. عبد المجيد عابدين (لمحات من تاريخ الحياة الفكرية المصرية قبل الفتح العربي وبعده) ص٣٢، ٤٢، ٤٤. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤م.

obeikandl.com

لقد استعصت مصر على قبول الهوية الحضارية للفاتحين الذين فتحوها «فتح تدمير» رغم استمرار قهر هذا اللون من الفتوحات أكثر من عشرة قرون، لكنها فتحت قبلها وعقلها للهوية الحضارية العربية الإسلامية بعد سنوات معدودة من هذا الفتح التحريري الذي استظلت به تحت رايات الإسلام، لقد دخلت به في دين الله ووجدت في توحيده البعث الجديد للتوحيد الذي عرفته على يد نبي الله إدريس ـ عليه السلام ـ الذي جاءها بهذا التوحيد في عهد أبي البشرية آدم عليه السلام.

وهكذا كانت الفتوحات الإسلامية فتحًا جديدًا في معنى الفتوحات التي عرفها التاريخ.

الجمعة ٨ رجب ١٤٣٧هـ.
١٥ أبريل ٢٠١٦م

obeikandl.com